لغة اليمنيين فى الجاهلية

(من كتاب تحت الطبع سيقدم إلى مؤتمر المستشرقين بانجلترا)

للأستاذ محمد الصاوى عمار

يطالعنا كتاب الأغانى وغيره من أمهات كتب الآداب العربية كما يطالعنا أبو عمرو بن العلاء والأصمعى وابن سلام والسجستانى وابن هشام وابن دريد وابن لهيعة وغيرهم من ثقات المؤرخين وعمدهيكل التاريخ العربى القديم - بالجمهرة الوافية من تاريخ اليمن فى الجاهلية والأسلام وأوضاع لغتها وسبل مخاطبتها وهى لاتكاد تختلف كثيرا عن اللغة المضرية إلا فى قليل من التراكيب ومعانى المفردات وأوجه الأعراب - كقولهم - « هقنيو » فى أقنوا بمعنى « أعطوا » و « جحمة » فى « عين » و « قلوب » فى « ذئب » و « شناتر » فى « أصابع » فتراهم يقولون « خذ المسبر بشناترك » أى خذ القلم بأصابعك . وقال شاعر منهم يرثى امرأة أكلها ذئب بقصيدة جاء فى مطلعها

أيا جحمتا بكّى على أم واهب أكيل قلوب ببعض المذانب

وهكذا إلى آخر مايعرفه كل من قرأ آداب العرب وألم بأصول اللغات وفقهها أو نظر المعاجم وما تحويه من لسان القبائل العربية المختلفة

لكن « جوزيف هاليفى ومورتمان وملولر وجلازر » من علماء الآثار « بأوربا » عثروا فيما عثروا عليه فى أطلال اليمن وخرائب عمائره على ألواح نقش عليها بالخط المسند عبارات لو تأملناها لوجدناها تختلف كثيرا عن اللغة اليمنية المروية لنا عن الرواة الثقات — فما عثر عليه لوحان نقش على أولهما ما يأتى :—

« وهبم وأخوه من كلبت هقنيو المقه ذاهران مذندن بجن بمسألهو وسعدهمو هنعمم منه »

أى « وهب وأخوه من بنى كلبة أعطوا « المقة ذاهران » هـذا اللوح من أجل أنه أجابهم بما سألوا وساعدهم إنعاما منه »

ونقش على الثانى ما يأتى « شفزم وأخت امهو بعلتى خمتن خلف هجرن شمتى وثنا للمقه بعل أوم مجن أنه وقهوم بمسألهو »

أى : شفزم وأخت أمه صاحبا الخيمة خلف هجر ، وضعا وثنا للمقه صاحب أوم من أجل أنه أجاب سؤلهما

فصفق لذلك بعض مستشرقى الفرنجة و بنوا « من الحبة قبة » وظنوا أنهم مانعتهم تلك الأحجار من الضلال ، والتيه فى أودية الخيال . وراحوا يزعمون أن هذه اللغة هى التى كانت مستفيضة بين اليمن وشائعـــة بين مخاليفه . وشايعهم فى ذلك بعض أدبائنا المصريين ظنا منهم بأنهم بارعون فى العلوم المادية إذ وصلوا إلى نظريات معقولة فى الهندسة وأصول الرياضة وقواعد صحيحة فى الميكانيكا والكهرباء والبخار والكيمياء فهم كذلك بارعون فى العلوم اللسانية وغفلة منهم عن أنهم مهما تكن براعتهم فى الاختراع وقدرتهم فى الابتداع فهم باعتراف أساطينهم ـ ليسوا بأقدر على تفهم اللسان العربى من العرب أنفسهم كما أنه لا يعقل أنهم يفهمون جيمية « الشماخ » ولامية « الشنفرى » وميمية « زهير » ودالية « طرفة » أكثر من « سيبويه والكسائى والأخفش والمبرد وثعلب »

ولن يستطيع أحد ـ سليم العقل قويم التفكير ـ أن يدعى أن أكبر مستشرق مهما كان مبلغه من العربية وعمقه فى دراستها واستقراء لهجات العرب وبيان حقائقها أن يبز فيها صيارفها وأئمتها

كما لن يدعى أن أى دخيل فى الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية أنه كهوجو أو شكسبير أو جوته فليس للضالع شأو الضليع

وهانحن أولاء نلقى نظرة على تلك « النقوش » لعل فيها شيئا من ضياء العلم وإشراق المنطق يهدى إلى الرشد ـ فأن نكن قد وفقنا فذلك مانبغى وإلا فحسبنا أن نكون قد نبهنا إلى مواضع حرية بالنظر جديرة بالاعتبار كما أننا فى الوقت نفسه

لانشك فى صحتها كاشك « هوجو فنكار وليونارد كنج وثاتشر وغيرهم من كتاب تاريخ « هار مزوث العالمى »

ولعل من المستحسن أن نلتمس العذر من القراء إذا نحن أكثرنا الاستشهاد بقول الأجانب فلقد تعودنا صدق مايقولون — كما أنا سنتلمس «الحقائق التاريخية » من الواقع المشاهد لنا أو من « المذاهب العلمية الحديثة » المقررة فى الأبحاث كما لانشك كذلك فى أنها كانت مفهومة عند طائفة من سكان اليمن القدماء

لكنا نشك فى أنها كانت مستفيضة بين أفخاذه أجمعين ذلك لأننا لانعلم من نقشها ولا فى أى عصر نقشت حتى تتأتى المقابلة بينها وبين اللغة المروية لنا عنهم وحتى يجوز اطراح إجماع علماء اللغة والثقات من مؤرخى الآداب العربية

بل إن إغفالها من التاريخ سبب اضطرابا كبيرا بين الباحثين فى الحكم عليها فنجد « جلازر » يردها إلى القرن السادس عشر ـ ق م كما أن « مولر » يرجعها إلى القرن التاسع ق م أيضا

ومهما اعتبرنا أحد الرأيين صحيحا فليس فى ذلك مايصح أن يكون دليلا علميا على إثبات « حقيقة علمية » أجمع كل مؤرخى الآداب على خلفها وذلك : ـ

(ا) لأن النصوص المروية إن لم يفد كل منها القطع منفردا فلا أقل من أن تفيد القطع مجتمعة

(ب) ولأن وسائل التحقيق التاريخى تختلف باختلاف العصور لا بمقدار ماتركه كل عصر من الآثار

(ج) ولأن لبعد الزمن شأنا كبيرا فى اختلاف اللهجات وتطور أوضاعها وصعوبة التمييز بينها

(د) ولأن سكان اليمن كانوا قبائل متعددة فبالطبع يتعدد لسانهم وعلى فرض أن لسانهم كان واحدا فقد ثبت أنهم تفرقوا فى أنحاء جزيرة العرب ثم عاد بعضهم إلى موطنه الأصلي وللبيئة أثرها البين فى تطور اللغة وتغيرها

(ه) ولأن لغة النقوش تلك يتعذر بها التفاهم مع الحجازيين مع ما كان بينهم من الاختلاط التجارى فى رحلتى « الشتاء والصيف » فضلا عن تسلط اليمنيين عليهم تسلط حكم و إدارة

(و) ولأن الحوادث المدونة بالآثار لا تتعلق بكل تاريخ اليمن بل بأشخاص وحوادث معينة خاصة بأفراد معلومين

(ز) ولأن النقوش لم تعين هل هى سبئية أم معينية فهى ينقصها التحقيق التاريخى

(ح) ولأن العرب كانوا أميين أغلبهم

إذن لا يبعد أن تكون هذه الأحجار قد نقشت بأيدى الآراميين الدخلاء الذين استوطنوا اليمن أيام القحطانيين ولم ترسخ لهم قدم فى العربية

وليس ذلك ببدع فى الاستنتاج فنحن نكتب بغير اللغة التى نتكلم بها كما يكتب النوبيون لعهدنا هذا - بالعربية وهم لا يتكلمون بها

وكأنجليزية « تشوسر » وإنجليزية « ماكولى » أو أن بعضهم وضعها للأحاجى والألغاز كما تضع الطوائف (النورية) عندنا أو القبائل (الرحل) مواضعات يصطلحون عليها و يتكلمون بها

وأذكر أنه مر ركب منذ سنتين بفنائنا فى قرية من قرى الريف فوضع فيه (أرحاله) وأقام عليه (خيامه) وكنت إذ ذاك بها أقضى شطرا من عطلتى السنوية فاتفق أن مررت يوما على هذه الخيام فاستوقفنى رئيسهم وقاسمنى إلا ما شربت (الشاى) وبعد أخذ ورد بيننا قبلت ولكن على شرط أن أشرب (القهوة) لأنى لا أتناول (الشاى)

ولما استقر بنا المقام على (نقل) أمام (الخيمة) سمعته يتكلم مع ابنة له بسرعة مدهشة بلغة لاهى بالعربية ولاهى بالأعجمية وما أقربها إلى الأحجية والرقى فأثبت منها على غلاف كتاب كان معى ما يأتى :

(اسملى عناب جهوة قر صلوه حنا سأن فرفر الجيه بلبل لايحرب شنبر جاى شرشير)

أى (اعملى قهوة حلوه لأن البيه لايشرب شاى) فأجابته بقولها
(إسنا حنا ماشندناش سن عمر بلح مجحون طرطير) أى
(إحنا (نحن) ماعندناش بن مطحون) فقال لها (إسلى غله الساء مرمر واسعتى بالك جالح صرصر يجترى شرشيب سن بلح مجحون طرطير) أى (اغلى الماء وابعثى صالح يشترى بن مطحون)
فقالت « صادر حنا » أى (حاضر) « نعم »

فتفاهمت معه عن أصل هذه اللغة فتلاءم معى وانتهى بنا الكلام على أنها لغة يتوارثها الأبناء عن الآباء وهكذا

وأذكر أن زارنى صديق لى « وكيل نيابة » فأطلعته على غلاف الكتاب ليعجب فكان عجبى أكثر حينما أفهمنى أن محاضر «التحقيقات» فى البوليس والنيابة تحوى كثيرا من مثل هذه الصفحات

فأذن — على رأى هؤلاء المستشرقين — لو عثر على ورقة كتبت بهذه اللغة فى مصر أو العراق أو فارس أو الحجاز — أفتكون هذه لغة تلك الأقطار ؟

ولو ذهبنا نتعسف فى التدليل . إلى ما فوق المعقول . وطرحنا النصوص المروية بجملتها . وأخذنا بهذه النقوش على علتها . وصرفنا النظر عن كل احتمال أو تأويل . أو استغلال أو تعليل . وافترضنا أنها هى التى كانت شائعة بين بطون اليمن جمعاء لا يتكلمون بغيرها ولا يعرفون سواها أفلا يصح أن نعتبرها أصلا انحدرت عنه لغة اليمن المروية لنا بطريق التواتر وإجماع المؤرخين كما انحدرت الفرنسية والانجليزية عن اللاتينية واليونانية ؟

وليس من شك فى أن ستة عشر قرنا على رأى جلازر أو تسعة قرون على رأى ـ مولر ـ كافية جدا للتطور بين لغة النصوص ولغة النقوش كما أن أربعة قرون كفت فى تغير الانجليزية من لغة الفرد ـ الملك ـ إلى لغة «تشوسر» فأن الدكتور (جيمس مرى) يصرح بأن تعليم الفرنسية ؟ مع واحدة منهما أسهل من الجمع بينهما

ولم يكن الخلاف بمستبعد بين النصوص المروية والنقوش المكشوفة إذا نظرنا إلى لغتنا التى نتكلم بها الآن واللغة فى عصر صدر الأسلام حتى ليوشك أن تكون كل منهما لغة مستقلة عن الأخرى بالرغم من وجود «القرآن الكريم» بيننا وهو معجزة اللغـة الأبدية التى تعصمها من كل تحريف أو تصحيف ومن وجود (الدين الأسلامى) الخالد المتصل بالعربية اتصال الروح بالجسد الحى

على أن الخلف بين اللغتين لم يكن وحده بكاف لقلب التاريخ رأسا على عقب ومحاولة إلغاء وجود المئات من مؤرخى الآداب العربية

لأن اللغة كـكل الكوائن الحية قوامها عاملان قويان يتناولانها ويقومان على بقائها : عامل الابتكار الذى يسيغ لها كل شىء - وعامل الوراثة الذى يكبح جماحها ويقيد نفارها

فلو صـدرت صورها معادة مكررة لا تمت إلى سابقتها بوشيجـة ولا تتقابل معها فى وليجة لفسد اللسان وكانت اللغة فوضى

وما أشبهها بالطفل يخرج إلى الدنيا فيتلقاه عن اليمين وعن الشمال ذانك العاملان فلو هو مخلى بينه وبين نوازعه وما تهديه إليه حيويته من الابتكار لجاء بعيدا عن أبيه لا يتصل معه بأية صلة

لـكن عامل الوراثة يرد شمسته ويصـد جمحتـه فيصبح وهو ليس الخطوة الأولى فى سبيل التجديد

على أننا لو تتبعنا مناشىء الخلف بين اللغتين لوجدنا لها نظائر وأشباها بين كل لغات العالم

بل لوجـدنا أمثالها فى « القرآن الكريم » نفسه وهى لاتخرج غالبا عن خلف « فى التهجى والكتابة والنحو والصرف والمفردات اللغوية »

محمد الصاوى عمار
مدرس بالمدارس الأميرية